العلاقات الزيانية المرينية في عهد السلطان أبي سعيد عثمان 681 ه703-ه /1283م 1303-م

د /محمد مكيوي
قسم التاريخ جامعة تلمسان

ولد السلطان أبو سعيد عثمان بن يغمراسن سنة 639هـ/ 1241م، وكانت مبايعته بعد وفاة والده في أوائل شهر ذي الحجة 681هـ/1283م، وقد جاء في در التنسي: « ثم بويع بعده ابنه الملك الأسعد، الهمام الأنجد، ذو الهمم العلية والشيم الرضية والمآثر الحسان، أمير المسلمين أبو سعيد عثمان، فاستكثر من الأنصار، ودوخ المعاقل والأمصار، انعقدت له البيعة في أوائل ذي الحجة من السنة المذكورة، فاقتفى في الجد وترك الركون إلى الدّعة، سنن أبيه، ولم يكن همه إلاّ في إشادة بيت مجد يعليه، فشمر في غزو الأعادي»[1].

أما يحي بن خلدون فقد جاء بغيته: «وكان شهما مقداما محببا إلى القلوب، ذا سياسة»[2].

و هذا ما يؤكد أنّه كان ملكا شهما، حسن السياسة والتدبير مقداما صبورا على حوادث الدهر وضرباته.

وكان من المحتمل أن يورث يغمراسن السلطة إلى ابنه أبي زكرياء يحي، غير أنّ أبا زكرياء قد توفي في حياته سنة 669هـ[3]، فولى يغمراسن ابنه، أبا سعيد عثمان فأبقاها هذا في أسرته، إلى أن استولى أبو الحسن المريني على تلمسان سنة 737هـ/ 1337م.

وأما عبد الرحمن، فقد ولد بسجلماسة، أثناء ولاية أبيه عليها، ونشأ بها، ثم بتلمسان، وكان فارسا شجاعا اشتهر بين أبناء عشيرته، حتى أن عمه أبا سعيد تخوف منه على عرشه، فأجازه إلى الأندلس بأولاده سنة 694هـ فأقام بها سنوات عديدة، ثم انتقل إلى بلاط السلطان المريني بفاس، فمكث هناك قليلا، ثم لحق بابن عمه السلطان أبي حمو موسى الأول ابن أبي سعيد، بتلمسان، سنة 712هـ وفي سنة 713هـ أجازه أبو حمو إلى الأندلس.

فاستقر بعد ذلك بغرناطة، في بلاد السلطان أبي الوليد بن فرج، من بني الأحمر، ولما قامت الحرب بين هذا وقريبه أبي الجيوش نصر بن محمد، كان عبد الرحمن ضمن الجيش الذي بعثه أبو فرج لمضايقة منافسه بوادي آش، وتوفي في الهزيمة الكبرى التي مني بها جيش غرناطة، بوادي فرتونة، قرب وادي آش جمادي الأول 716هـ/ 17 يولية 1316م[4].

وبقي أولاد أبي زيد عبد الرحمن بالأندلس حتى سنة 737هـ عندما استدعاهم السلطان أبو تاشفين عبد الرحمن الأول، بالرجوع إلى تلمسان فرجعوا إليها وأقاموا مكرمين عنده حيث أعلى مكانتهم بين أمراء بني عبد الواد. وبقيت حالهم على هذا الشكل إلى أن استولى السلطان أبو الحسن المريني على تلمسان، فأرغموا على الاستقرار بفاس، ومكث بها أبو يعقوب إلى بداية إمارة أخويه أبي سعيد وأبي ثابت، فعاد إلى وطنه.

ولم يستقر بتلمسان، بل فضل أن يقيم بمدينة ندرومة، وانتهت هذه الإقامة بسقوط إمارة أخويه، فنقل مع الكثير من بني عبد الواد إلى فاس، حيث عاش إلى أن قامت دولة ابنه أبي حمو الثاني.

سيـاسـته:

عندما لم يفلح يغمراسن في صراعه مع بني مرين، بعد أن عظم شأنهم، أوصى أبناءه وهو على فراش الموت بالتخلي في مجابهة المرينيين والتوجه شطر البلاد الحفصية المجاورة، ومما جاء في وصيته: «يا بني إن بني مرين بعد استفحال ملكهم واستيلائهم على حضرة الخلافة بمراكش لا طاقة لنا بلقائهم فإياك أن تحاربهم، فإن مددهم موفور ومددك محصور ولا يغرنك أني كنت أحاربهم، ولا أنكص عن لقائهم، لأني كنت أخشى معرة الجبن عندهم بعد التمرس بهم، والإجتراء عليهم، وأنت لا يضرك ذلك لأنك لم تحاربهم. ولم تتمرس بهم فعليك بالتحصن ببلدك متى زحفوا إليك، وحاول ما استطعت الإستيلاء على ما جاورك من عمالات الموحدين أصحاب تونس، ليستفحل بها ملكك، وتكافئ حشد العدو بحشدك»[5].

ويفهم من نص الوصية ما يلي:

- إن بني مرين أصبحوا – عدة وعددا- قوة لا قبل للعبد الواديين بها.
- إن قتال يغمراسن لهم كان محتما عليه.
- يحذر يغمراسن ابنه من مواجهة بني مرين في معركة ما.
- ينصحه بالالتجاء إلى الدفاع عند مهاجمتهم له، والالتجاء إلى الحصون.
- وبالمقابل يحثه على تقوية جهازه الاقتصادي والبشري بالتوسع شرقا على حساب الحفصيين.
- وبالتالي يعمل على تقوية جهازه الحربي وتدعيمه لكي يستطيع فيما بعد مواجهة المرينيين بحشود يعادل حشودهم.

- وينصحه باتخاذ معقل لذخيرته في الثغور الشرقية البعيدة عن العدو المريني.

فهذه العناصر التي اشتملت عليها وصية يغمراسن كانت هي الأساس الذي بنيت عليه استراتيجية الدولة العبد الوادية لمدة طويلة من حياتها، فمنذ تولي عثمان السلطة سارع إلى مهادنة بني مرين[6]، وبالمقابل توجه لتأديب الإمارات الشرقية الموالية للحفصيين[7]وتبعه في ذلك والده: أبو حمو الأول وأبو زيان[8].

هذا وقد وصل التوغل العبد الوادي نحو الشرق إلى أوجه في عهد أبي تاشفين عبد الرحمن الأول، حيث تمكنت قواته من افتتاح تونس عاصمة الحفصيين نفسها[9].

وبالفعل أصبح الجيش العبد الوادي بعد فتوحاته الشرقية قوة لا يستهان بها، خاصة في عهد أبي حمو الأول وولده أبي تاشفين الأول. أما بخصوص مواجهة بني مرين فقد طبق كل من عثمان وأبي حمو الأول نصيحة السلطان يغمراسن، حيث تجنبا ملاقاتهم في ساحة المعركة، وكانا يلتجئان دوما إلى أسوار تلمسان، دفاعا عن كيانها ضد عدوهما القوي[10].

وهكذا زادت حشودهم قوة كما كانت عليه في بداية عهد الدولة، وخير دليل على ازدياد قوة وحشود الدولة العبد الوادية في عهد أبي حمو الأول، أنه حشد في وقت واحد أربع قوات عسكرية وجهها في غزوات عبر شرق البلاد، وذلك أنه «عقد لمسعود بن عمه أبي عامر برهوم على عسكر وأمره بحصار بجاية، وعقد لمحمد بن عمه يوسف قائد ملیانة على عسكر، ولمولاه مسامح على عسكر آخر، وسرحهم إلى بجاية وما وراءها لتدويخ البلاد. وعقد لموسى بن علي الكردي على عسكر ضخم، وسرحه مع العرب من الدواودة وزغبة على طريق الصحراء» [11].

وكذا الحال بالنسبة لأبي تاشفين الأول الذي كثرت حشوده العسكرية حتى أضعف قوة الحفصيين. وقد أنزل بحصن واحد فقط، وهو حصن تامزيزدكت الجديد، القريب من بجاية، «عسكرا يناهز ثلاثة آلاف»[12].

كما يلاحظ أن هذه الحشود العسكرية العبد الوادية منذ نشأتها تتألف من عدة فئات منها: قبيلة السلطان، والأحلاف، من قبيلة بني عامر وغيرها.

وفي سنة 646هـ/ 1248م، استخدم يغمراسن بن زيان كتيبة من عساكر الروم- الذين كانوا في خدمة الخليفة الموحدي (السعيد)- قدرت بـ»ألفين» من الفرسان. وبعد تآمرهم على يغمراسن سنة 652هـ/ 1254م، منع استعمالهم في الجيش العبد الوادي تماما، وبقي ذلك المنع

معمولا به إلى النهاية[13]ولكن ثبت فيما بعد أن المرتزقة المسيحيين بقوا في خدمة الدولة[14].

وفئة أخرى كذلك استخدمت ضمن الجيش العبد الوادي وهي فئة الحشم[15] وقد استخدمهم لأول مرّة عثمان بن يغمراسن في جبل وانشريس من قبائل توجين[16] وسار على نهجه بعد ذلك ولده أبو حمو الأول، ثم حفيده أبو تاشفين الأول[17].

وهناك قبائل أخرى ملزمة بالمشاركة في الحروب إلى جانب الدولة العبد الوادية نظرا للعهود التي قطعتها معها، ولكي يضمن السلطان العبد الوادي دوام ولائها، كان يلزمها بتقديم الرهائن من أبنائها، وقد اتبع هذه السياسة أبو حمو الأول وبالغ فيها إلى حد كبير[18]، من هذه الفئات جميعها كانت تتكون الحشود العسكرية العبد الوادية.

غير أنّه لم تمض على فترة الهدنة بين فاس وتلمسان سوى بعض سنوات حتى تعكر الجو، وتدهورت العلاقات، وانفجر الوضع على الحدود، وعاد شبح الحرب يهدد المنطقة بالخراب والدمار.

ففي سنة 881هـ/ 1290م، لجأ الأمير أبو عامر بن السلطان أبي يعقوب المريني وأنصاره من الثوار إلى عثمان بن يغمراسن أمير تلمسان، فكتب السلطان أبو يعقوب إلى الأمير العبد الوادي يطلب تسليم المتمردين، فأبي وامتنع، وقال لرسول السلطان أبي يعقوب: « والله لا أسلمه أبدا ولا أبيع حرمتي وأترك من استجاربي حتى أموت» [19].

وكان هذا التصرف من عثمان سببا مباشرا في توتر العلاقات من جديد بين بني عبد الواد وبني مرين[20]. فاندلعت الحرب بينهما وتوالت الهجمات من طرف بني مرين على تلمسان حيث حاصر المرينيون تلمسان سنة 1290 لكن بدون نتيجة تذكر.

فترك أبو يعقوب سبيلها في السنوات الموالية إذ كان منشغلا عنها بأمر أسبانيا، وثورة بني وطاس ولكنه لم يهملها، زاده حقدا عليها تفاوض ملك بني عبد الواد مع ملك بني الأحمر محمد الفقيه ضده سنة 1292م.

ولم يتفرغ لمحاربتها إلاّ سنة 1295م فكانت حربا طويلة المدى دامت إثنى عشر عاما وأحكم الخطة واحتل على التوالي تاوريرت الواقعة على وادي صا سنة 1295م، ووجدة سنة 1296م، وندرومة سنة 1298م، وناوش مرات عديدة تلمسان واضطر في الأخير إلى مهاجمتها ومحاصرتها. وكان ذلك يوم 6 مايو 1299م، فعسكر أمام عاصمة أعدائه وعزم ألاّ ينصرف عنها

قبل أن تسقط في حوزته، ولم يقل حماة المدينة عنه عزما، إذ كانوا مصممين على الإستماتة وتقابلت هاتان العزيمتان طيلة ثمانية أعوام، وظل أبو يعقوب طيلة الفترة يبسط نفوذه على كامل المغرب الأوسط حتى مدينة الجزائر بالقوة تارة وبالتفاوض تارة أخرى.

وشيد سلطان فاس أبو يعقوب في مواجهة المدينة المحاصرة مدينة المنصورة[21] واتخذها قاعدة للتوسع في أراضي بني عبد الواد، مشددين بذلك الخناق على العبد الواديين المعتصمين بعاصمة ملكهم، ورغم الوسائل التي استعملها المرينيون في منازلة تلمسان والتضييق عليها، فإن صمود بني عبد الواد واستماتتهم في الدفاع عن وجودهم قد أحبط تلك المحاولات وحال دون سقوط تلمسان ولم تفتر عزيمتهم بموت ملكهم المفاجئ[22] ولقي السلطان أبو يعقوب حتفه[23]دون أن يتمكن من اقتحامها وبموته رفع الحصار على المدينة وتنفس أهلها الصعداء بعد المشاق والآلام التي عانوها من جرّاء الحصار الخانق الذي كانوا عرضة له[24].

الهوامش:

-1 التنسي: نظم الدر، ص 129.

-2 يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1، ص 208، 209، عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج7، ص 184، 190.

-3 عبد الرحمن بن خلدون: المصدر نفسه، ج7، ص -175 -176 238، يحي بن خلدون: المصدر السابق ، ص -13 14.

-4 أنظر أعمال الأعلام لابن الخطيب، ص 339 – 340، عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق ، ، ص -238 239، يحي بن خلدون: المصدر السابق بغية ص -14 15.

5 السلاوي: الإستقصاء، ج3، ص 56، عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق ، ص 189، 190، عطاء الله دهينة: وصية يغمراسن، مجلة تاريخ وحضارة المغرب العربي، عدد 6 – 27 يولية 1969، ص -22 26 بالفرنسية.

-6 عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق ، ص 190.

7 عبد الرحمن بن خلدون، المصدر نفسه، ، ص -190 192.

8 عبد الرحمن بن خلدون، المصدر نفسه ، ، ص -201 215.

-9 عبد الرحمن بن خلدون: المصدر نفسه، ص 224.

-10 أنظر عبد الرحمن بن خلدون: ، المصدر نفسه ، ص 212، 213، 223.

-11 عبد الرحمن بن خلدون: المصدر نفسه، ص -212 213.

-12 عبد الرحمن بن خلدون: المصدر نفسه، ص 223.

-13 عبد الرحمن بن خلدون: ، المصدر نفسه ، ص 174، 175.

14 مجلة تاريخ وحضارة المغرب العربي، العدد 11، ص 32، 34.

15 حشم الرجل: خاصته الذين يغضبون لغضبه لما يصيبه من عبيده أو أهله، أنظر عبد الرحمن بن خلدون، العبر، ج7، ص 192.

16 عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ج7، ص 192.
-17 عبد الرحمن بن خلدون: المصدر نفسه، ص 204، -205 228.
-18 عبد الرحمن بن خلدون: ، المصدر نفسه ، ص 215.
-19 عبد الرحمن بن خلدون: المصدر نفسه، ص 441، 442. ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 278.
20 وكان السبب في ذلك هو عصيان أبي عامر وخروجه عن طاعة أبيه السلطان أبي يعقوب، والتجائه إلى تلمسان واحتمائه بسلطانها عثمان بن يغمراسن وقد كان السلطان قد عقد لوزيره ابن عطوش الجناتي على مدينة مراكش وترك معه ولده أبا عامر، فلما عاد السلطان من حركته في أنحاء المغرب رجع إلى فاس في منتصف ربيع 686هـ/ 1288م، مشتغلا بعرسه على بنت موسى بن رحو الغرناطية، خرج عليه ابنه أبو عامر ولحق بمراكش ودعا لنفسه في أواخر 687هـ/ 1288م، وساعده على ذلك عاملها محمد بن عطا فتلهما السلطان وحاصر مراكش أياما فاضطر الثائر إلى الفرار فالتجأ إلى تلمسان واحتمى بسلطانها عثمان بن يغمراسن 688هـ/1288م، فأواهما ومهّل لهما المكان غير أن السلطان عطف ورضي على ابنه فعاد إلى مكانه وطلب عثمان بن يغمراسن أن يسلم إليه بن عطوا المتآمر مع ابنه فأبى، وفي بعض الروايات أن الرسول قد أغلض في القول فاعتقله عثمان فثارت في نفس أبي يعقوب الضغائن والأحقاد الكامنة فاعتزم على منازلة تلمسان. للتفصيل أنظر: عبد الرحمن بن خلدون المصدر السابق ، ص 213، التنسي: نظم الدر، ص 179.
-21 في أثناء الحصار شرع السلطان أبو يعقوب في بناء وإنشاء حاضرة المنصورة على بعد 4 كلم غرب تلمسان، وكان ذلك في فصل الشتاء سنة 688هـ/ 1299م، جعلها السلطان معسكرا لجنده وقاعدة للتوسع على حساب بني زيان وسماها «محلة المنصورة»، أو تلمسان الجديدة وكان مما أنشأه بها يومئذ قصرا وسوقا، نشأت مدينة جديدة وعرفت ازدهارا اقتصاديا كبيرا، وكان حول القصر سورا يفصله عن سكنى الرعية وحول ذلك السور بنيت المنازل والقصور الأنيقة والحمامات العمومية، والفنادق والأسواق، وأجريت مياه البساتين، وأنشئت دار لإسعاف ثم أحيطت منصورة هذه بسور أنشأته الحكومة المرينية 702هـ/ 1302م، لحمايتها من الضرر فأصبحت بعد ذلك من أعصر الأمصار الجزائرية وأبرعها جمالا، قال ابن الخطيب:)منصورة تلمسان التي لم ير الراؤون مثلها، ولا وصف الواصفون مثلها، وأما قصرها ومسكن الإمام بها فقد رأيت ممن دخله من المتجولين ممن رأى مباني العراق ومباني مصر والشام والمباني القديمة في الأندلس ومراكش واجمع كلهم على أن الذي اجتمع فيه لم يجتمع في غيره ويحقق ما قالوه.(للتفصيل أنظر: التنسي: المصدر السابق ، ص 178، 179، يحي بن خلدون: ، المصدر السابق ، ص 121، عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق ، ص 196، ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 386.
-22 هلك السلطان أبو سعيد عثمان بعد خمس سنين من الحصار وقيل أنه شرب شرابا مسموما تفاديا من معرة الهزيمة، والإنكسار وكانت وفاته يوم 703هـ/ 1304م، فبويع ولده أبو زيان الأول، أنظر: التنسي، المصدر السابق، ص -178 179.
ولا عند أخيه عبد الرحمن بن خلدون، في الوقت التي توجد عند ابن أبي زرع، ص 285. كما ذكره المقري: أزهار الرياض، ج2، ص -335 336، القصة نفسها بتفصيل أكثر.
23يقول التنسي: «وتمادى بها الحصار، ثماني سنين وثلاثة أشهر، وحرك الله في تلك المدة الولي الشهير أبا زيد عبد الرحمن الهزميري من مدينة أغمات حتى ورد على يوسف بن يعقوب، وهو محاصر تلمسان، فكلمه بالإنصراف عنهم، ورغبه فيه غاية الترغيب فأبى إلا التصميم على ما هو عليه، فلما يئس منه قام عنه مغضبا»، وقال: يجيء سعاد يقضى هذا، وكان يوسف بن يعقوب قد قتل الفقيه العالم أبا علي المليانى واستلب أمواله ومن جملة ما أخذه خصيا اسمه –سعادا- كان قد رباه أبو علي المليانى فكان يقول له المليانى

أنت أخي فلما أخذه يوسف بن يعقوب صيره من جملة الخصيان المتصرفين بين يديه. فلما كان يوم الأربعاء 7 ذي القعدة 706هـ دخل الخصي المذكور على يوسف بن يعقوب وهو نائم، فالقى الله في قلبه طلب ثأر مولاه فطعنه، بسكين في بطنه فكان في ذلك له الحتف ولأهل تلمسان اللطف. غير أن هذه القصة لا توجد عند يحي بن خلدون ولا عند أخيه عبد الرحمن بن خلدون، في الوقت التي توجد عند ابن أبي زرع، ص 285. كما ذكره المقري: أزهار الرياض، ج2، ص -335 336، القصة نفسها بتفصيل أكثر.

24 أماً أهل تلمسان فقد نالهم الجوع واضطروا إلى أكل الكلاب والثعابين، ولم تفتر عزيمتهم بموت ملكهم المفاجئ، ويصف لنا صاحب الإستقصا أن أهل تلمسان قبل رفع الحصار: «نالهم فيها من الجهد والشدة ما لم تنله أمة من الأمم واضطروا إلى أكل الجيف والقطط والفئران، حتى أكلوا فيها أشلاء الموتى من الناس وخربوا السقوف للوقود وظلت أسعار الأقوات والحبوب وسائر المرافق تجاوز العادة، وقد وصل ثمن مكيال القمح الذي يسمونه البرشالة ويبتاعون به مقداره أثنى عشر رطلا ونصف مثقالين من الذهب العين، وثمن الرأس الواحد من البقر ستون مثقالا، ومن الظأن سبعة مثاقيل، وأثمان اللحم من الجيف الرطل من لحم البغال والحمر بثمن مثقال ومن الخيل بعشرة دراهم ورطل من الجلد البقري ميتة بثلاثين درهما، والهر بمثقال ونصف، والكلب بمثله والفأر بعشر دراهم والدجاجة بثلاثين درهما والبيضة بستة دراهم.....».

فاستهلك أهل تلمسان أموالهم وموجودهم وضاقت أحوالهم واستفحل ملك يوسف بن يعقوب، حيث اتسعت مدينة المنصورة المشيدة ورحل إليها التجار بالبضائع من الأفاق واستبحرت في العمران ما لم تبلغه مدينة. أنظر: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ، ص -95 96، يحي بن خلدون، المصدر السابق، ص -210 211، دائرة المعارف الإسلامية، المجلد 5، ص -379 -380 381، السلاوي: الإستقصاء، ، ص -85 56، التنسي: المصدر السابق، ص -179 180.